التدابير الواقية لحماية المجتمع المسلم من سوء الأخلاق في سورة الحجرات

إعداد : د. يوسف محمد النور حامد *

* أستاذ السيرة والتاريخ الاسلامي المشارك جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم السودان

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المستخلص

إن علاقة المسلم بأفراد مجتمعه المؤمن وبمظاهره الاجتماعية يجب أن تكون مستمدة من الإيمان ونامية من الأخوة الإسلامية الصادقة ، ورافعة في كل مظاهرها علم الأخوة وإنما المؤمنون إخوة لا سخرية في هذه العلاقة ولا سوء ظن ولا تجسس ولا غيبة ، إنما المؤمنون فيها كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . ولذا جاء البحث يتمحور في هذه المعاني يبين للفرد المسلم الطريق القويم الذي يجب عليه أن يسلكه في حياته كلها .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

تمهيد :

إن في شريعة الله تعالى جانباً مهماً لعلاقة الفرد المسلم بمجتمعه ، وهو سد الذرائع ، وإن لكل قاعدة فيها حمى ، سواءً في الأصول أو الفروع ، فإذا وجد المجتمع في هذه الشريعة عنايةً بما لم يصلوا إليه من الخير والكمال ليقع ويعرفوه ، وعنايةً بالشر من حيث رده وعلاجه لئلا يقع ويعرف ، فهذا هو صلاحها لكل زمان ومكان وكمالها .

وعلاج أسباب الفرقة وتدابيرها الواقية لبقاء البناء شامخاً قوياً ، لا تعصف به العواصف ولا تبلى قواعده وتهون عزائمه ويسأمه من في فطرته .... خلاف النظريات البشرية فإنها غباء مدمر وتناقض لا يزول ، لأن أصحابها لا يعرفون فسادها إلا بعد وقوعه ، فإذا النظرية كلها فساد ، وإصلاحها بإبدالها بنظرية أخرى تناقضها .. وهكذا نظرية بعد نظرية وفساد متتابع لا ينتهي .

المبحث الأول :- سبب نزول الآيتين (١١،١٢) من سورة الحجرات :-

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ الحجرات: ١١ وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ الحجرات: ١٢ لقد ذكر كثير من المفسرين أسباباً لنزول الآية الأولى وأوردوا أقوالاً بلا سند وكأنهم يفرضون على أنفسهم أنه لابد من سبب وإن لم يصح ولم يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم[١].

(١) كالواحدي في أسباب النزول ، وابن الجوزي والزمخشري والخازن والسيوطي وغيرهم .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وأصح ما روي من ذلك على ما أعتقد ما رواه أبو جبيرة بن الضحاك[1]أن النبي ﷺ قدم المدينة وأهلها قلّ أحدٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة فيجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه فيغضب فنزلت الآية .

وفي رواية : فجعل النبي ﷺ يقول : " يا فلان " فيقولون له : يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم ، فنزلت هذه الآية "[2] .

وأما الآية الثانية فقد ذكر المفسرون في سبب نزولها أخباراً من أشهرها فيما يذكرون ما روي عن أنس بن مالك ﷺ قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ ، رجل يخدمهما فناما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعاماً فقالا إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا له ائت رسول الله ﷺ فقل له إن أبا بكر وعمر ﷺ يقرئانك السلام ويستأدمانك ، فقال ﷺ : " إنهما قد ائتدما " . فجاءا فقالا يا رسول الله بأي شيء ائتدما ؟ فقال ﷺ : " بلحم أخيكما والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما " . فقالا رضي الله عنهما : استغفر لنا يا رسول الله ، فقال ﷺ: " مراه فليستغفر لكما "[3] .

ومهما يكن الأمر من ذكر الأسباب فإن الآيتين بكل ما تتضمنان من المعاني وتشملان من الجزيئات توجيه عام شامل للمؤمنين في كل زمان ومكان ، صيانة لهم ووقاية

---

(١) أبو جبيرة بن الضحاك بن خليفة الأنصاري أخو ثابت بن الضحاك ؛ اسمه لا يعرف، وقيل أنه لا صحبة له ، وصنيع بن حجر يدل على أنه يراه صحابياً لأنه ترجم له في القسم الأول في حرف الجيم من باب الكنى ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأخرج حديثه البخاري في الأدب المفرد ، كما أقر به أصحاب السنن . انظر ترجمته في الإصابة ؛ ج٤ : ص٤١ .

(٢) رواه أحمد في المسند ؛ ج٤ ، ص٦٩ ، وقال حسن صحيح .

(٣) ذكره ابن كثير وقال : أخرجه الحافظ الضياء المقدسي في كتاب المختار ، وذكر سنده لتفسير ؛ ج٤ ، ص٢١٦ ، وقال الألوسي في روح المعاني ؛ هذا خبر صحيح ولا طعن فيه على الشيخين " انظر روح المعاني ؛ ج٢٦ ، ص١٥٩ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

لأفرادهم وأسرهم ومجتمعهم الكبير من أن يتزلقوا في هذا السداسي الجاهلي (السخرية واللمز والنبذ والظن السيئ والتجسس والغيبة) الذي تناصفته الآيتان السابقتان بالسوية .

أنه أدب يقيم سياجاً قوياً حول حرمات المسلمين فلا تحلل، وكراماتهم فلا ينال منها ، وأعراضهم فلا تنهك ، وحرياتهم الممنوحة لهم شرعاً فلا تقيد وتصادر . إنه توجيه من الله الحكيم الخبير بما في النفوس يربي جماعة المؤمنين ومجتمعهم على أسس نظيفة بعيدة عن التهمة والشرور ، نقية مهذبة بريئة من كل الهواجس والشكوك ؛ فلا يعكرون وينغصون حياتهم وإخوتهم الإسلامية وترابطهم بقلق وإرجاف لنفوسهم . والآيتان تترابطان وتتساندان في تهذيب المجتمع ورسم المنهج القويم له ، فالآية الأولى اختصت بعلاج مرض السخرية واللمز والنبز بالألقاب ، والآية الثانية بالظن والتجسس والغيبة ، وتلك لبنات الشر وصور الجهل والدمار ، وكلها آخذ بعضها ببعض ، فالسخرية وشقيقاها اللمز والنبز بالألقاب لا يسلم منها إلا من سلم من الظن وهو مقدمة التجسس ومن تجسس لا شك أنه سيغتاب ويقول ما في أخيه وما ليس فيه . وسيقع في أعراض الآخرين وحقوقهم ودمائهم وذلك هو أكل لحم المسلم بعينه ... وما يأكل لحم الآدمي إلا السبع الضاري المفترس . وبل الحيوان المفترس في غالب الأمر لا يأكل لحم أخيه من جنسه ، ولكن الظان المتجسس المغتاب تفوق على السبع المفترس في الشره والوحشية لأنه يأكل لحم أخيه ميتاً .... وعلى كل فكل ما ذكر في الآيتين تشمله الغيبة من وجه آخر وهي آخر ما ذكر في الآية الثانية .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الثاني : التدابير الواقية من السخرية واللمز و النبز :-

١- **السخرية** : وهي أول ما جاء في الآيتين السابقتين لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الحجرات: ١١] . إن السخرية قد ورد بيانها في الكتاب العزيز كما وردت أوصاف الساخرين والمسخور منهم ، ووردت السخرية في اثنين وأربعين مرة في إحدى وعشرين سورة ، وكل ذلك يدور في القرآن الكريم ويقصد به أربعة معاني :

الأول : التذليل وهو معنى التسخير كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(١).

الثاني : التسلط وهو من معاني التسخير كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾[الحاقة: ٦ - ٧]

الثالث : الاستهزاء وهو معنى ما في الحجرات كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١٢]

الرابع : الاستخدام كقوله تعالى :﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾(٢).

فكل الصيغ الواردة في القرآن الكريم تعود إلى تلك المعاني الأربعة وإليها يعود معنى مادة "سخر"(٣).

---

(١) سورة الجاثية : الآية ١٣ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

(٣) انظر إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للدامغاني ، ط١ ، ص٢٣٣ . وانظر أيضاً المفردات : للراغب الأصفهاني ، ص٢٢٧ . ولسان العرب لابن منظور في مادة سخر : ج٤ ، ص٣٥٢ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والسخرية هي أخطر هذه المعاني وتعني الاستهزاء وهو المقصود في آية سورة الحجرات ، والمستهزئ لا شك أنه مذل غيره ومتسلط عليه ؛ فكل معاني العدوان والظلم جمعها الساخر في سخريته ، وتلك خصال أهل الكفر والنفاق .

ولأهل التأويل أقوال في الآية في تحديد المنهيين عن السخرية ، فمنهم من يرى أن المقصود سخرية الغني من الفقير وهي من البلوى التي يبتلى بها كثير من الأقوياء والأغنياء في نظرتهم إلى الضعفاء والمساكين والفقراء إلا من شكر الله سبحانه وتعالى وتواضع له .

ويرى آخرون من المفسرين أن المراد بالمنهيين عن السخرية هم من ستره الله في الدنيا من المؤمنين بألا يسخر ممن كشف ستره في الدنيا لسبب من الأسباب ، فالله تعالى " عم بنهيه المؤمنين عن أن يسخروا من مؤمن لا لفقره ولا لذنب ارتكبه ولا لغير ذلك(١).

ولقد كان أسلوب الآية يشير إلى ذلك العموم ، في كل كلمة من كلماتها وتركيب من تراكيبها ؛ فقوله تعالى : (قوم من قوم) لا يخص قوم دون قوم آخرين ، وكذلك (نساء من نساء) فإن التنكير في الموضعين إن قصد به التبعيض فهو تبعيض يطلق على كل رجل وكل امرأة من المؤمنين ، وإن قصد به العموم فهو نهي لكل جماعة من المؤمنين ، أن تسخر على أية حالة سواء كانوا أفراداً أو جماعات(٢).

ومما يزيد لهذا الشمول عمقاً أن الله تعالى ذكر جنس الرجال في جانب وجنس النساء في جانب آخر ، ونهى كل جنس من أن يسخر بعضه من بعض . ويفهم من ذلك أن سخرية جنس الرجال من جنس النساء أو العكس في متناول النهي كذلك .

---

(١) تفسير الطبري ، مج١٣ ، ج٢٦ ، ص١٣١ .

(٢) الكشاف ، للزمخشري ، ج٣ ، ص٥٦٥ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

فلم يكن الأسلوب هنا كما عهدنا في القرآن الكريم هو تغليب الرجال على النساء ، لأنهن تبع للرجال ، وذلك لخطورة السخرية على المجتمع المؤمن فوجب التفضيل في كل اعتبار ليكون المؤمنون على بينة من الأمر فلا يعتدي بعضهم على بعض بأي نوع من السخرية ، ومما يلفت النظر في دقة الآية الكريمة في التفريق بين الجنسين ، أن الاستحقار والسخرية في الغالب يصدران من الرجال بالنسبة إلى الرجال ومن النساء بالنسبة إلى النساء أكثر من أن يصدرا من أحد الجنسين إلى الآخر ، والمرأة في نفسها ضعيفة لا يلتفت الرجل إليها كثيراً لمنافستها أو تفوقها ليسخر منها بسبب ذلك ، وهي بدورها في أمس الحاجة للرجل فلا تنظر إليه بعين السخرية وإنما تنظر إليه إجلالاً وتقديراً(١).

وذكر النساء خاصة دون أن يغلب عليهن الرجال يبدو لي والله أعلم أنهن في هذا المقام أشد من الرجال وأقوى في كيد السخرية والاستهزاء وتغليب الرجال عليهن يساوي بينهن وبين الرجال(٢).

إن منهج الدعوة الإسلامية لا يقف عند الأمر والنهي فقط بل إنه يعلل الأمر والنهي فما يذكر من ذلك شيء إلا ولله فيه حكمة بالغة ، وعلة التحريم أو الوجوب فيه واضحة ، وإن خفيت على بعض الناس ، فنهي الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن السخرية لم يقف عند هذا الحد فحسب بل تجاوزه إلى أسلوب أوضح ومنهج أدق في التحذير من السخرية ، فقد علل الله سبحانه وتعالى النهي للجنسين من الرجال والنساء بقوله : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ الحجرات: ١١ و ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ الحجرات: ١١ فهذا التفضيل يقصد به استئصال مرض السخرية من المجتمع المؤمن ، بما يعلمه الساخرون بأنفسهم لو أنهم فكروا أو حاسبوا

(١) التفسير الكبير : للرازي : مج١٤ : ج٢٨ : ص١٣٢ .

(٢) تفسير القرطبي : ج١٦ : ص٣٢٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أنفسهم الأمارة بالسوء ، فالمسخور منه لاشك أنه قد يكون خيراً من الساخر ، وإن لم يكن خيراً منه فهو مثله في الإنسانية والإيمان فلا وجه للسخرية للأمرين إلا إذا صح أن يسخر الإنسان من نفسه ويكون الساخر والمسخور منه شيئاً واحداً والميزان العقلي يأبى ذلك ، ويفهم من الوجهين وجه ثالث وهو أن الساخر إن كان خيراً من المسخور منه فإن هذا ينافس الخيرية إن لم يبطلها وينقلب المسخور منه خيراً من الساخر(١).

وبكل ذلك قطع الله الحجة على كل من يتذرع بشيء من الدعاوى ليسخر من غيره ، وخاصة أن المجتمع المؤمن تعلم من منهج الدعوة الإسلامية : أن المظهر الخارجي لا يدل على ما في باطن الإنسان ، كما يشير إليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : "

إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "(٢) .

" فهذا الحديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفاً مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفاً محموداً يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية ، ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة ، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة لا تلك الذات المسيئة "(٣) . وهذا لاشك أنه نظر دقيق فإذا لم يسخر ممن أساء في الطاعات وتهاون في الواجب عليه وإنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر

(١) التفسير الكبير : الرازي : مج١٤ : ج٢٨ ، ص١٣٢ .

(٢) رواه ابن ماجة : ج٢ ، حديث ١٣٨٨ . النووي على صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة ، ج١٦ ، ص١٢١ .

(٣) تفسير القرطبي : ج١٦ : ص٣٢٦:٣٢٧ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ويذم الشر ولا يسخر من الذوات ، فمن باب أولى ألا يسخر من أحد لأجل شيء قدر عليه في خلقته أو في ضرب من ضروب حياته

يقول جار الله الزمخشري عند تفسير آية السخرية هذه موضحاً تعليل النهي عن السخرية فيقول : " والمعنى وجوب : أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر ، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات ، وإنما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من ذلك بمعزل فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبق في محادثته ، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله "(١) .

وبذلك التفصيل والتعليم في الآية الكريمة جاء منهج الدعوة الإسلامية لوقاية المجتمع المؤمن من الانحلال والانفكاك ، فلا يهدم ما بناه الله فيه بالإيمان والترابط بالأخوة الإيمانية لا يهدمه بالسخرية والاستهزاء ، والسخرية واضحة المعالم مكشوفة المثالب وهي الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة " .

ولكنه لاشك أنه سخرية إذا كان يتأذى به ويتضمن استحقاره واستصغاره ، كالضحك على كلامه وأفعاله وعلى صناعته أو خلقته أو هيئته وثيابه أو جنسه وتزعه ، وإذا لم يتأذ بذلك

(١) الكشاف ، للزمخشري ، ج٣ ، ص٥٦٥،٥٦٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أو جعل نفسه مسخرة ويفرح بذلك فهو من باب المزاح المكروه الذي قد يؤدي إلى عواقب وخيمة(١).

ولقد بلغ بالسلف الصالح الخوف من السخرية حداً بعيداً صيانة لأنفسهم وتوقياً لها من الوقوع في شرور السخرية ، حتى ذكر عن بعضهم أنه لو رأى رجلاً يرضع عنزاً فضحك منه لخشي أن يصنع مثل ذلك ، وروي عن بعضهم : أنه لو سخر من الكلب لخشي أن يحول كلباً . وكل ذلك إنما هو من مراعاتهم ما نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه ، ولعلمهم بأن السخرية مما قضى الله على أحد من خلقه قضاءً كونياً إنما هي سخرية في الحقيقة من الله تعالى ، وما أشنعها وأقبحها من أن يسخر الإنسان من صنع وقدر خالقه . وعندما نستنتج من موقف السلف الصالح ذلك ونعلم أنه لم يمنعهم ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمييز الخبيث من الطيب قولاً وعملاً ، ولم يلتبس ذلك عليهم بما أمروا به من القول والعمل وتغيير المنكر وإنكاره ورد القبيح وبغضه عندئذ سنعلم حقيقة ذلك المجتمع المؤمن الذي يحيى بالقرآن والسنة ولأجلها . ويتدبر ما جاء فيهما من الويل والثبور ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين: ٢٩ - ٣٦(٢).

(١) إحياء علوم الدين : للغزالي ، ج٣ : ص١٢٨ .

(٢) سورة المطففين ، الآيات : ٢٩-٣٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وقوله تعالى في استهزاء المنافقين بالمؤمنين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾التوبة: ٦٥ (١).

وأما السنة النبوية فقد جاءت منددة بالسخرية والساخرين ومحذرة من شر وسواسها وهي بيان للقرآن الكريم وتفصيل لمجمله ، ومن ذلك ما جاء في خطبة النبي ﷺ بمنى : " أتدرون أي يوم هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن هذا يوم حرام ، أتدرون أي شهر هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن هذا شهر حرام ، أتدرون أي بلد هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : فإن هذا بلد حرام ، قال : فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " (٢) (٣) .

فالتعرض للمسلم بالسخرية وغيرها خطير على الساخر نفسه وعلى المجتمع المؤمن عامة، وخاصة عندما يتخذ من السخرية وسيلة لحمل الآخرين على عدوان غيرهم ، وأقبح من ذلك إذا كان في السخرية إرضاء لمستمع الساخر في سخط الله ، كما بينت أم المؤمنين عائشة ﵂ في كتابها إلى معاوية بن أبي سفيان ﵁ عندما كتب إليها : " أن أكتبي إلى كتاباً أوصيني فيه ، ولا تكثري علي " فكتبت له : " سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، والسلام عليك "(٣).

---

(١) سورة التوبة : الآية : ٦٤ .

(٢) فتح الباري من صحيح البخاري : ج١٠ : ص٦٣ .

(٣) رواه الترمذي في كتاب الزهد ، ج٤ ، حديث رقم ٢٤١٤ .

٢- اللمز : وهو الآفة الثانية التي ورد النهي عنها في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ الحجرات: ١١ . وذلك بعد النهي عن السخرية وهو داخل في السخرية ويكون في متناولها مع كل الآفات التي ذكرت في الآيتين السابقتين .

واللمز هو الطعن والضرب باللسان وعيب الغير في غيبته ، ويشبه الغمز في الوجه وأصله الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفي . وقيل هو الاغتياب ولا فرق بينه وبين الغيبة ، والفرق بينه وبين الهمز بأن اللمز من يعيب في حضرة الملموز والهمز من يعيب في غيبته . وفرق آخر هو : " أن اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان " ، وقيل أنهما سواء(١). وقيل : " اللمز السب خلف الإنسان ، والهمز العيب في وجه الإنسان ، وقيل : بل الأمر بالعكس لأن من تغاليب همز هزم ؛ وهو يدل على البعد ، ومقلوب اللمز اللزم وهو يدل على القرب ، فيشمل العيب بالإشارة أيضاً " .

وهل النهي في ((ولا تلمزوا)) هو النهي الأول في ((لا يسخر)) ؟ أو بينهما مغايرة وإن كانا في الهدف سواء وإن اللمز يدخل في السخرية وكلاهما خاص بالمؤمنين كما لو السورة تخص في منهجها المجتمع المؤمن ، فالسخرية واحتقار الشخص مطلقاً على وجه مضحك بحضرته ؛ واللمز التنبيه على معايبه سواء كان على وجه مضحك أو لا ؛ وسواء كان بحضرته أم لا ، كما قيل في تفسيره ؛ وعطف ((ولا تلمزوا)) على ((لا يسخر)) من باب عطف العام على الخاص ، من هذا الوجه ؛ وإذا كانت السخرية كما قيل الاحتقار واللمز التنبيه على المعايب أو تتبعها ، فالعطف من باب عطف العله على المعلول ، وإذا كان اللمز مخصوصاً بما

---

(١) لسان العرب لابن منظور : ج٥ ، ص٦ ، ٤٠٤٤ ، ٤٢٤٤ : مادة لمز وهمز . والكشاف للزمخشري : ج٣ ، ص٥٦٢ . والتفسير الكبير للرازي ، مج١٤ ، ج٢٨ ، ص١٣١ . وتفسير القرطبي : ج١٦ ، ص٣٢٧ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كان من السخرية في الخفاء كالإشارة ، فهو من باب عطف الخاص على العام ، ولأهمية الخاص هذا خص بالذكر ، وهذا أحب إليّ لدقة القرآن الكريم وشموله ، فالسخرية شاملة لجميع أنواع اللمز والنبز ونحوها(1).

وعلى كل فإن الهمز واللمز كلاهما في فروع السخرية والاستهزاء ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن كل ذلك المؤمنين ، كما قال في المنافقين الذين يلمزون المؤمنين ويسخرون منهم ، بل هم يلمزون رسول الله ﷺ ويطعنون في حكمه مع حرصهم على أن يعطوا من الصدقات وغيرها مما يقسمه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[التوبة: ٥٨](2) . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[التوبة: ٧٩](3) . فهاتان الآيتان تشيران إلى أن اللمز من صفات النفاق ومن علاماته ، فالمنافقون إن رأوا بعض المؤمنين يتصدق بكثير قالوا مرائي ، وإن تصدق بقليل وهو لا يجد غيره ، سخروا ولمزوا وقالوا : ماذا يصنع الله بهذا ؟ وإن قسم الرسول ﷺ بين المسلمين قالوا : قسمة غير عادلة(4).

والمنافقون جاءت أوصافهم في منهج الدعوة الإسلامية المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليحذر المؤمنين من صفاتهم وذواتهم وهي علل بادية لمن يديرها لأن الكتاب

---

(١) تفسير روح المعاني ، للآلوسي : ج٢٦ : ص١٥٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٥٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٧٩ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ، ص٣٤٧،٣٥٩ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والسنة اعتنيا بالنهي عنهما ، وقد قال العلامة ابن القيم : " زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب وساقية الرياء ، ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمة ، فإذا تمت هذه الأركان الأربع استحكم ثبات النفاق وبنيانه ، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر وكشف المستور وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور ، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حصلها كانت كالسراب ، قلوبهم عن الخير لاهية وأجسادهم إليها ساعية ، والفاحشة في فجاجهم فاشية ، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية ، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصارهم وكانت آذانهم واعية(١).

وإذا كان اللمز وصفاً لأهل النفاق في الآيتين ، فإنه لاشك أنه خلق من أخلاق الكفار من المشركين واليهود وهم أساتذة النفاق والمربون للمنافقين ، وهؤلاء جميعاً موقفهم أمام الدعوة الإسلامية كله سخرية ولمز وهمز ، ومن الطريف في منهج القرآن الكريم وهو منهج الدعوة الإسلامية أن ما وصف الله به أولئك في السورة ؛ هو الذي وصف به أساتذتهم من قبل ، إذ قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾[القلم: ١٠ - ١٣](٢) . فالنهي عن السخرية واللمز ليس فقط بسبب ما في الآفتين من الأضرار وبذور التفرقة والعدول على الآخرين ، وإنما كذلك لما علمنا من منهج الدعوة الإسلامية من خلال الآيات والأحاديث النبوية أنهما (أي السخرية واللمز) من معالم الكفر والنفاق والمعاول التي يهدمون بها الدين وينالون من المؤمنين . وهل يريد المؤمنون أن يفعلوا

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ج١ : ص٣٤٧-٣٥٩ .

(٢) سورة القلم ، الآيات : ١٠-١٣ .

ذلك بأنفسهم وبدينهم ؟ لذلك كانت الآية تخاطب نفوس المؤمنين في عمق وتسترحم ضمائرهم لأنفسهم ، وتثير عاطفتهم فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾الحجرات: ١١ وقد دارت كلمات المفسرين في مجملها حول كلمة (أنفسكم) وتناولوها بالتحليل وتحديد المقصود والهدف المنشود ، ولم يكن ذلك لغرابة في كلمة (أنفسكم) وإنما أثارهم المعنى الذي يؤديه ظاهرها ، وهو أن الإنسان يطغى حتى ينسى نفسه فيطغى عليها ويطعن فيها وبسببها ويسخر منها وهو لا يدري ، فمن المفسرين من يذكر أن من سخر ولمز غيره سبب بذلك أن يسخر منه ويلمز منه الآخر ، ومنهم من رأى أن المؤمنين كنفس واحدة مترابطة ، فمن سخر ولمز من بعض المؤمنين فقد فعل ذلك بنفسه(١).

وهذا الأسلوب في الآية نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾النساء: ٢٩(٢) . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾النور: ٦١ (٣).

فجعل القاتل هو المقتول والمسلم هو المسلم عليه فكل ما صدر من المسلم إلى أخيه المسلم فإنما هو من نفسه إلى نفسه .

ومما يشبه المعنى الأول هذا الأسلوب في الآية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه " قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟

---

(١) تفسير الطبري : ج٢٦ ، ص١٣١ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٦١ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

قال : " يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه "(١) . ومما يشبه المعنى الثاني من الستة كذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "(٢) .

ومما يفهمه بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾الحجرات: ١١. أن غير المؤمنين يجوز أن يلمز ويسخر منه لأن النهي عن سخرية ولمز المؤمنين بعضهم بعضاً ، أما غيرهم لا يدين بدينهم ولا يسير بسيرتهم فلا عليهم حرج فيه ، لأنه لا حرمة له كالمؤمنين ولا حق له(٣). وهذا الفهم في الآية غير سديد لأن الله سبحانه وتعالى إنما نهى عن السخرية واللمز والنبز لما تدل عليه هذه الصفات من رذالة الأخلاق وسوء الطوية ، ولما تدل عليه من استباحة أعراض الآخرين بلا حق ، وغير المؤمنين لا يجوز أن ينال منهم إلا بحق في حدود الشرع وبأسلوبه في دعوة غير المؤمنين إلى الإسلام وجهادهم وحملهم على الدين ولا يكون هذا إلا بأخلاق فاضلة ومنهج إسلامي ، والسخرية واللمز ليسا من أساليب منهج الدعوة الإسلامية وهما في حد ذاتهما ممقوتان وهما في هذا الباب كالغدر والغش والكذب والغصب واللعن وكل ما لا يجوز في حق المؤمنين وغيرهم ، والتزام المسلمين بذلك في منهج الدعوة الإسلامية مع الأمم التي دعوها إلى الإسلام من أبرز الأسباب التي فتحت لهم قلوب الناس واختاروهم عمن سواهم ، وإنما خص الله تعالى هنا المؤمنين في النهي عن اللمز لأن ذلك أعظم وإن احتكاك المؤمنين بعضهم ببعض أكثر .

---

(١) فتح الباري من صحيح البخاري : ج١٠ ، ص٤٠٣ .

(٢) النووي على صحيح مسلم : ج١٦ ، ص١٤٠ .

(٣) الكشاف ، للزمخشري : ج٣ ، ص٥٦٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والمجتمع المؤمن في الأصل لا يتصف بهذه الصفات ، وأكثر ما ورد في القرآن الكريم في النهي عن السخرية واللمز إنما هو كما تقدم في الكفار والمنافقين لأن الإيمان يستلزم من المؤمنين الطهارة الكاملة من تلك الأخلاق الرذيلة .

٣- النبز : الله سبحانه وتعالى نهى عن النبز إذ قال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾(١).

فالنبز إذاً هو النهي الثالث : فالسخرية أشمل للجميع وأشد نكالاً ويليها اللمز بل هو من شعبها وأما النبز فهو دون اللمز لأن اللمز وصف يريد به اللامز ما يوجب النقيصة والحط من منزلة الملموز ، وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن يستحقه في نظر الملقب ، كما أن اللقب الحسن والاسم المستحسن إذا وضع لأحد وعلق عليه ليس من الضروري أن يكون معناه مطابقاً الملقب والمسمى ، فمن تسمى بسعد أو سعيد أو حسام الدين أو محي الدين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة وزينة ، وكذلك النبز واللقب لا يفهم منه أن الملقب كذلك(٢).

والنبز بالتحريك هو اللقب وجمعه الأنباز ، وأما النبز بالتسكين فهو المصدر ، والتنابز بالألقاب هو التداعي بها ويكثر في الذم ، وهو تلقيب الإنسان بما يكرهه من اسم أو صفة(٣).

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١١ .

(٢) التفسير الكبير للرازي : ج١ : ص١٣١ .

(٣) لسان العرب لابن منظور : ج٥ ، ص٤١٣ ، مادة نبز .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والتنابز بالألقاب تناوله المفسرون بالتحليل والتعيين في أقوالهم وآرائهم والتحقق أن كل ما ذكروه يدخل في النبز بالألقاب ؛ لأن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب .. وهو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة وعم الله بنهيه ذلك ، ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض ، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها ، وإذا كان ذلك كذلك صحت أقوال أهل التأويل في ذلك كلها ، ولم يكن بعضها أولى بالصواب من بعض لأن كل ذلك مما نهى الله المسلمين أن ينبز بعضهم بعضاً(١). ولا فرق بين اللقب والكنية التي تشعر بالذم ، فالإتقان حاصل بين أهل العلم على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء كان صفة له أو لأبيه أو لأمه أو لغيرهما ، والدين يرفض هذا ولا يجيزه تمسكاً بهذا النهي من رب العالمين (وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) .

ولم يستثن من هذا إلا ما كانت الحاجة إليه ماسة ولا يعرف الملقب إلا بلقبه ، لا لقصد نبزه بلقب ، كما هو العمل عند علماء الجرح والتعديل(٢).

وأما الألقاب والكنى الحسنة فإنها ما برحت تأخذ مجراها بين الأمم عرباً وعجماً ، في مخاطباتهم ومناداتهم من غير نكير بل أن هذا مندوب إليه وإشاعته بين الناس يقضي على الألقاب والكنى النكراء ، وينبه على خلق من القول رفيع تفاؤل حسن كريم ، وينبت الثقة بين الناس ، وينسج العلاقة بينهم بأدب جم وقول كريم(٣).

(١) تفسير الطبري : ج٢٦ ، ص١٣١-١٣٣ .

(٢) أحكام القرآن ، لابن العربي : ج٤ ، ص١٧١ .

(٣) الكشاف ، للزمخشري : ج٣ : ص٥٦٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

واللقب الذي لا يتأذى به الملقب ولا يقصد به من لقبه ذماً ولا تنقيصاً فيها يظهر ليس فيه شيء ، ولهذا عقد الإمام البخاري باباً في جامعه فقال " باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير " وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو اليدين "(١)

وقال الحافظ ابن حجر : هذه الترجمة معقودة لبيان حكم الألقاب ومالا يعجب الرجل أن يوصف به مما هو فيه ، وحاصله أن اللقب إن كان مما يعجب الملقب ولا إطراء فيه مما يدخل في نهي الشرع فهو جائز أو مستحب وإن كان مما لا يعجبه فهو حرام أو مكروه إلا إن تعين طريقاً إلى التعريف به حيث يشتهر به ولا يتميز عن غيره إلا بذكره(٢).

تلك ثلاثة مظاهر وأعلام جاهلية نهى الله عز وجل عنها المؤمنين في هذه الآية " السخرية واللمز والنبز " ووجههم بألا تكون من مظاهر أدبهم ومعالم مجتمعهم المؤمن ومداخل نفوسهم المطمئنة ، وهي معاول الهدم وأسباب الفرقة ، وقد جاءت في الآية مرتبة ترتيباً بديعاً ، والنهي عنها أكده الله سبحانه وتعالى في نهاية الآية بأن سماها فسوقاً وما كان فسوقاً يجب على المجتمع المؤمن الابتعاد عنه ، لأنه مجتمع الصلاح والإيمان والروابط الإنسانية .

وأسلوب الذم هنا " بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان " رادع آخر وزاجر قوي يردع المؤمنين بعد اجتناب المنهيات الثلاثة في أول الآية ، ويردعهم عن أن يسخروا ويلمزوا وينبزوا المؤمنين ، ويصفوهم بما يكرهونه من الأسماء والصفات ، وفي هذا التوجيه الدقيق ما يتناسب مع وصف الإيمان ، كما أن شموله محيط في تبرئة المؤمن الساخر والمسخور منه بناء

(١) ذو اليدين السلمي يقال اسمه الخرباق ترجم له ابن حجر في الإصابة ، ج١ : ص٤٨٩ .

(٢) فتح الباري من صحيح البخاري ، ج١٠ ، ص٤٦٨ .

على وصفهم بالإيمان ، فالمؤمن لا يسخر ولا يتنبز باللقب ويلمز ولا يصدر منه ذلك ولا يوجه إليه ويربي فإذا من تاب من كفر ودخل في الإيمان واتصف به لا يوصف بما ركب قبل التوبة فمن باب أولى ألا يوصف بذلك ولم يسبق له ، وينشأ له لقب ولمز وسخرية من أصل المجتمع المؤمن(١).

فالإسلام لا يعرف تصنيفاً لطبقات في المجتمع على أساس من الغنى والفقر ، أو الجاه والشرف ، أو نوع العمل الذي يباشره الإنسان . وإنما إذا ميز إنساناً عن إنسان فميزته عند الله بالمستوى الإنساني فيه على معنى أن صاحب المستوى الرفيع في التهذيب والسلوك وأداء الواجب ، والمشاركة للآخرين في عواطفهم ومعاوناتهم على سد حاجاتهم أقرب في القبول عند الله ، ومن إنسان آخر هو أدنى منه في هذا المستوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولكن في المجتمع يجب أن يتوافر الاعتبار البشري للأفراد جميعاً على السواء . فلا يسخر فرد من فرد ولا ينتقص إنسان إنساناً آخر ، ولا يدعو إنساناً إنسان بما يكره أن يناديه به أحد(٢).

المبحث الثالث : التدابير الواقية من سوء الظن والتجسس والغيبة :-

لا يزال المنهج الإسلامي من خلال سورة الحجرات يواصل بنا في تربية المجتمع المؤمن وتهذيبه وينقلنا من صورة إلى صورة أخرى لاستكمال المنهج الشامل للدعوة الإسلامية ويبعدنا عن متاهات الجاهلية ومظاهر الطغيان والعدوان .

ويقول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ الحجرات: ١٢ .

---

(١) التفسير الكبير : للرازي : مج١٤ : ج٢٨ : ص١٣٣ .

(٢) القرآن والمجتمع : محمد البهي : ص١٦ ، ١٨ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

هذه الآية توجيه آخر وثيق الصلة بما ذكر في الآيات السابقة من السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة ، وهذه الأمور في مجموعها معالم الجاهلية ، وغريبة عن مجتمع الإسلام والإيمان ولا تتناسب مع وصف المؤمنين به ودعوتهم إلى الوحدة وترابطهم كالجسد الواحد ، لذا كان منهج الدعوة الإسلامية في هذه السورة منهجاً موضوعياً يحذر المجتمع المؤمن من تلك الوساوس الشيطانية وعواقبها قبل أن يستحكم سلطانها ويحيط بالمجتمع سرادق نارها ثم يشتعل فساداً وينسكب دماراً(١).

والآية هذه قد افتتحت المنهيات فيها – بعد النداء الحبيب والوصف الكريم – بالظن وهو واسطة العقد والبذرة الأولى في ذلك السداسي الذي تناصفته الآيتان .

والظن هو الهاجس والوسواس الذي كان سبباً لما قبله وباعثاً لما بعده ، والنهي عنه في أول الآية الثانية عما في الآية الأولى ، كما أنه نهي عما يأتي بعده في الآية الثانية . " ولأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل إذا أوقف أموره على اليقين في أحد عيباً فيلمزه به ، فإن الفعل في الصورة قد يكون قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك ، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرأي مخطئاً "(٢) .

والظن شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عيان ، وإنما يقين تدبر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم " وليس المقصود بالظن : مبادئ الظنون التي لا تملك وخواطر القلوب التي لا تدفع " ومنه الظنة وهي التهمة ، والظنين : المتهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ التكوير : ٢٤(٣).

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ج٢٨ ، ص١٣٤ .

(٢) التفسير الكبير : للرازي : ج٢٨ ، ص١٣٥ .

(٣) سورة التكوير : الآية : ٢٤ ، على قراءة بالظاء وليس بالضاد .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

فالظن كما تقول العرب هو للرجل الضعيف أو القليل الحيلة هو ظنون ، ويعني الرجل السيئ الظن(١). والظن اسم لما يحصل عن أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت لم تتجاوز حد التوهم(٢). وعلى كل حال فالمعنى الأصلي لهذه المادة " الظن " يدل على عدم الثقة وقلة الحصول على المطلوب سواء كانت هذه الكلمة " الظن " وصفاً لذات أو وصفاً لتفكير وبحث عن شيء يطلبه الظان ، والظن ورد في القرآن الكريم بوجوه من المعاني(٣).

الوجه الأول : العلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ص: ٢٤ (٤). وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الحاقة: ٢٠ (٥) . بل الظن في هذه الآية وصل إلى درجة اليقين . الوجه الثاني : الشك ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٦).

الوجه الثالث : ظن بمعنى الحسبان ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٧). وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٨).

---

(١) لسان العرب لابن منظور . ج١٣ : ص٢٧٢:٢٧٥ : مادة ظن .

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني : ص٣١٧ .

(٣) الوجوه والنظائر في القرآن لمقاتل : ص٣١١:٣١٢ .

(٤) سورة ص : الآية : ٢٤ .

(٥) سورة الحاقة : الآية : ٢٠ .

(٦) سورة الجاثية : الآية : ٣٢ .

(٧) سورة الانشقاق : الآية ١٤:١٥

(٨) سورة فصلت الآيتان: ٢٢، ٢٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الوجه الرابع : الظن بمعنى التهمة ، كقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ ﴾(١). وقوله تعالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢ (٢).

فالوجوه الثلاثة الأخيرة يتضمنها الظن الذي معنا في الآية ومن ظن هكذا فإنه يساوره الشك وبحسب ما ليس بواقع الظن بهذا الوصف ينهى الله تعالى عنه المؤمنين ويوجههم إلى تبني الحقائق واستكشاف الوقائع والأحداث بمنهج علمي بعيد عن الحدس والظن ، يتخذ من العلم واليقين واسطة ، ويحسن الظن بالآخرين ، ولا يجوز للمؤمنين أن يتبعوا منهج المشركين والمنافقين الذين كان الظن السيئ معلماً يعرفون به كقوله تعالى : وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ (٣).

وقد فرق ابن العربي بين الظن والعلم والشك ، فقال : " إن حقيقة الظن تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر ، والشك عبارة عن استوائهما ، والعلم هو حذف أحدهما وتعيين الآخر "(٤) . وإذا كان الكلام غيبة اللسان فالظن غيبة القلب والمقصود به هنا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضاً

(١) سورة الأحزاب : الآية : ١٠ .

(٢) سورة الفتح : الآية : ١٢ .

(٣) سورة الفتح : الآية : ٦ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ، ج٤ ، ص١٧١٢ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

معفو عنه ولكن المنهي عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن عليه النفس ويميل إليه القلب .. وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهد بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق(١).

ووساوس الشيطان لا يجوز تصديقها والتسليم بها ، وظن السوء بالغير لا يستباح إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وساوس الظن فينبغي أن تدفعها عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر ولكن كيف السبيل إلى معرفة عقد الظن السيئ وتميز علاماته لنفرق بينه وبين خوالج النفوس وشكوكها التي لا تخلو منها نفس ؟ ولعلنا نعرف أن أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه(٢). ومما يوقف ويحول بين المؤمن وغاية الظن ما روي : ثلاث لازمات لأمتي : " الطيرة والحسد وسوء الظن " فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض "(٣) . فالأثر هذا يشير إلى أن هذه الأمور الثلاثة

(١) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ج٣ ، ص١٤٠ .

(٢) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ج٣ ، ص١٤٧ .

(٣) رواه الطبراني عن حارثة بن النعمان في المعجم الكبير ، ج٣ ، ص٢٥٨ ، حديث رقم ٣٢٢٧ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

من أمراض القلب التي يجب التداوي منها ، وعلاجها ما ذكر وهو ألا يحقق من سوء ظن بالقلب ولا بجارحة من جوارحه الأخرى بل يصم عنه ويكرهه(١).

فإذا كان الأمر كذلك فإن حسن الظن من المؤمن وفي المؤمن خلق رفيع ومنهج من مناهج الدعوة الإسلامية في المجتمع المؤمن ، ولا يمنع من ذلك فطنة المؤمن للشر ومحاربته كيف لا ورسول الله ﷺ روي عنه أنه قال : " حسن الظن من حسن العبادة "(٢) . وذلك كحسن الظن في الله تعالى الذي يستمد منه المؤمن حسن الظن في المؤمنين ، كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : " يقول الله عز وجل : (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن اقترب إلى شبراً اقتربت منه ذراعاً ، وإن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) (٣). وقال ﷺ محذراً من سوء الظن بالله : " لا يموتن أحدكم إلا وهو محسن بالله الظن "(٤)

والظن المحرم هو سوء الظن بالله تعالى ويقابله وجوب حسن الظن بالله ، وحرمة الظن كذلك بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة والمطلوب حسن الظن فيهم . والظن المباح هو الذي يعرض في قلب المسلم في أخيه بسبب ما يوجب الريبة ، وهذا الظن لا يحقق . والظن المندوب إليه هو حسن الظن بالأخ المسلم وعليه الثواب . والظن المأمور به هو الظن فيما لم ينص عليه دليل يوصلنا إلى العلم(٥).

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي ، ج٣ : ص٣٠٦ .

(٢) رواه أبوداود في كتاب الأدب ، حديث رقم ٤٩٩٣ .

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ، ج٥ : حديث رقم ٣٦٠٣ .

(٤) شرح النووي من صحيح مسلم : ج١٧ : ص٢٠٩ .

(٥) زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي ، ص٤٦٩، ٤٧٠ . انظر أيضاً تفسير الخازن ، ج٦ ، ص١٨٩ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

هذه الأنواع وردت نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة في تحرير القول فيها ، وأيدها العلماء في تفسيرهم لمصدري التشريع " القرآن والسنة " .

ومن هذا يعلم كذلك أن من الواجب على المجتمع المسلم أن يسيء الظن في الكفار من أي جنس ولون ، ويلحق بهم من يقلدهم ويحبهم .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فالقلب عندما يبتلى بسوء الظن فإنه لا يقتنع بهواجسه الظنية ، بل يمتد به الظن إلى طلب التحقيق تجسساً وتحسساً ، ولما كان هذا غاية من غايات ظن السوء تناول النهي ثانياً التجسس بعد الظن في قوله تعالى : (وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) (١). وكلاهما يستلزم الآخر ، فالظن عندما يحقق لا مفر من التجسس ، وكل تجسس الباعث والداعي إليه هو الظن(٢).

والجس هو اللمس باليد ، وجس الشخص بعينه أحد النظر إليه ليتبينه ، وجس الخبر البحث عنه ، وقيل التجسس بالجيم طلب الشيء للغير ، وبالحاء طلبه للنفس ، وقيل الأول البحث عن العورات ، والثاني الاستماع . والجاسوس هو صاحب سر الشر والناموس صاحب سر الخير ، ومن هذا الجساسة وهي الدابة التي تجس الأخبار للدجال(٣).

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٢) تفسير القاسمي : ج١٥ : ص٥٤٦٣ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه من خبر تميم الداري رضي الله عنه في قصة الجساسة في كتاب الفتن .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والحس والحسيس هو الصوت الخفي ، ويقال أحسست الخبر إذا عرفت منه طرفاً ، ومنه الحواس الخمسة للإنسان ، وعلى كل فهاتان المادتان " جس وحس " يدور معناها على طلب الشيء بالقوة والخفاء وكشفه واستخراجه(١).

وقد وردت أخبار غير ما سبق في تحذير المؤمنين من هذا الداء الخطير كقوله عليه الصلاة والسلام : " إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم "(٢) . وقوله ﷺ: " إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم "(٣)

ولم ترد في القرآن الكريم هذه الصيغة إلا في سورة الحجرات ، في هذه الآية والقراءة التي قرئ بها في قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾يوسف: ٨٧. فقد قرئ بالجيم (فتجسسوا) . ولسائل أن يقول لماذا لم تكرر هذه الصيغة في القرآن ؟ والجواب أن يقال : يبدو والله أعلم أن ذلك يعود إلى انضباط المجتمع الإسلامي الأول ، ونظافته من هذه الأخلاق الرديئة ووضوح ظاهر الفرد المسلم وباطنه نحو أخيه المسلم .

وأما صيغة التحسس بالحاء بمعنى التجسس فقد قرئ بها في الآية التي معنا ، ومعنى القراءتين في الآيتين واحد ، ولكن صيغة التجسس وردت في القرآن في مواضع لمعان(٤).

أحدها : بمعنى البحث والتجسس كما ورد في القراءتين المذكورتين في الآيتين السابقتين

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، ج٦ : ص٣٨، ٤٩-٥٢ .

(٢) رواه أبو داوود منفرداً به ، ج٤ : حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٣) رواه أبو داوود منفرداً به ، ج٤ : حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، للدامغاني ، ص١٢٩، ١٣٠ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ثانيها : الحس والحسيس بمعنى الصوت ، كقوله تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾(١).

ثالثها : الحس بمعنى القتل ، كقوله تعالى : ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾(٢).

رابعها : أحس بمعنى علم ورأى ، كقوله تعالى : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ(٣). وقوله تعالى : فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ(٤). وقوله تعالى : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾(٥).

وقد وجه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المؤمنين من داء التجسس ، وذلك كما جاء في السنة من تربية المسلم بأن يستر نفسه ولا يتجسس عليها ما دام الله سبحانه وتعالى ستره ، كقوله ﷺ : " كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه "(٦) .

وقد كان النهي عن التجسس ذا أثر ومنهج في حياة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، لعلمهم بعظمة النهي في الآية والأحاديث النبوية . هذا وقد يؤدي الحرص على تغيير المنكر

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٥٢.

(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ١٢ .

(٥) سورة مريم ، الآية : ٩٨ .

(٦) رواه البخاري في كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ونشر المعروف إلى استطلاع يشبه التجسس ، فإذا كان ذلك من ولي الأمر الذي لا يريد إلا الخير ، ويحرص على أمن الرعية وسلامة أفرادها من المنكرات ، ووجد علامات تدعوه إلى ذلك فإنه يبدو والله أعلم أنه لا مانع من ذلك إذا لم يترتب عليه فساد أكبر .

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يدل على ذلك في مواقفه العادلة وخاصة في حراسته وهو يعس في المدينة المنورة بنفسه مع أنه كلما ذكر وقيل له قربت إلى التجسس أحجم وعفا وأخذ بجانب الستر المأمور به(١).

أما الغيبة فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

وقد تدرجت الآية في أسلوبها من نهي إلى نهي ، وهذا هو النهي الثالث وكل في نسق وترتيب بديع وتوجيه كريم لمجتمع فاضل أراد الله به خيراً ، وأرسل إليه خيراً ، وأنزل عليه وحياً ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، ووصف هذا المجتمع بالإيمان ونداءه بالوصف الغالي واللقب الحبيب " يا أيها الذين آمنوا " فيه الكفاية في أن هذا المجتمع لا تسود فيه المنكرات وتنوشه الظنون ويمزق وحدته التجسس ، ويأكل بعضهم بعضاً ، ولكن لخطورة هذه المعالم الجاهلية وفداحة أثرها في الفرد والجماعة المسلمة أراد المربي الكريم سبحانه وتعالى أن يزيل كل الشكوك والارتياب عن المؤمنين بمنهج مفصل لا يدع لأحد من المؤمنين مجالاً في أن القول بلا علم بناء على الظن .

---

(١) انظر روح المعاني : للآلوسي ، ج٢٦ : ص١٥٧ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

واستكشاف المظنونات بتجسس ونشر ما علم من المعايب بدون تجسس ، كل ذلك لا خير فيه ، ولا يتناسب مع منهج المجتمع المؤمن في حياته الإسلامية ويجافي وصفهم بالإيمان ، ويبيح أعراضهم التي هي أغلى من الدماء والأموال وقد حرمها الله والرسول صلى الله عليه وسلم(١). بل العرض يفدى بالمال والدم وماذا بقي بعد العرض ؟ وفي أسلوب الآية ما يثير عاطفة المسلم المغتاب ، لتشنيع ظاهرة الغيبة وتقبيحها ، وهو أن من يغتاب أخاه المسلم كأنما يأكل وينهش جثته وهو ميت ، وكل يشمئز من هذا ويكرهه(٢). وقد عرّف الغيبة النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لأصحابه : " أتدرون ما الغيبة ؟ " قالوا الله ورسوله أعلم . قال : " ذكرك أخاك بما يكره " قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته "(٣) .

وما أدل على ذلك هنا من توافق أسلوب الاستفهام في الآية (أَيُحِبُّ) وفي الحديث (أتدرون) فعن طريق الاستفهام التقريري رسخت الفكرة ، وعرفت الغيبة ، بكل ما تحمله من الشر والدمار .

وللغيبة أسباب وبواعث نلخصها فيما يلي :-

١- شفاء المغتاب غيظه بذكر مساوئ من يغتابه .

٢- مجاملة الأقران والرفاق ومشاركتهم فيما يخوضون فيه من الغيبة .

---

(١) راجع خطبه الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، السيرة النبوية / لابن هشام ، ط١ ، دار ابن كثير ، دمشق ، ٢٠٠٩م ، ص١٠٩٣ .

(٢) التفسير الكبير ، للرازي ، ج٢٨ ، ص١٣٤،١٣٦ .

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة ، وأبو داوود في كتاب الأدب ، ج٤ ، حديث رقم ٤٨٧٤ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٣- ظن المغتاب في غيره ظناً سيئاً مدعاة إلى الغيبة .

٤- أن يبرئ المغتاب نفسه من شيء وينسبه إلى غيره أو يذكر غيره بأنه مشارك له .

٥- رفع النفس وتزكيتها بتنقيص الغير .

٦- حسد من يثني عليه الناس ويذكرونه بخير .

٧- اللقب والاستهزاء والسخرية وتحقير الآخرين .

٨- المطايبة وتضحيك الناس على سبيل المحاكاة(١).

إن الغيبة مرض خطير ، وداء فتاك ، ومعول هدام ، وسلوك يفرق بين الأحباب ، وبهتان يغطي على محاسن الآخرين ، وبذرة تنبت شروراً بين المجتمع المسلم ، وتقلب موازين العدالة والإنصاف إلى الكذب والجور .

وعلاج هذا المرض لا يكون إلا بالعلم والعمل فإذا عرف المغتاب أنه تعرض لسخط الله يوم القيامة بإحباط عمله وإعطاء حسناته من يغتابه أو يحمل عنه أوزاره ، وأنه يتعرض لهجوم من يغتابه في الدنيا وقد يسلطه الله عليه ، إذا علم هذا وعمل بمقتضاه من خير فقد وفق للعلاج .

المبحث الرابع : التدابير الواقية المؤدية إلى التوبة :-

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة ستة معالم جاهلية وهي " السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة " وإليها يعود كل فساد وخراب في المجتمع الجاهلي في عقائده الفاسدة وأخلاقه المائجة ومعاملاته السيئة ، فانهار بكل ذلك في سخط الله تعالى ،

(١) أحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، ج٣ ، ص١٤٣، ١٤٤ . انظر أيضاً منهاج القاصدين ، لابن قدامه ، ص١٧٧ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وهذا هو المعلم البارز لمجتمع الكفر والنفاق ، في كل زمان ومكان ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(١).

ولما كانت هذه الصورة هي الصورة الأدبية لمجتمع غير مسلم وكانت تلك معالمه ومناهجه الظاهرة والباطنة ، لما كان الأمر هكذا في حقيقته ؛ نهج منهج الدعوة الإسلامية في هاتين الآيتين طريقاً تعليمياً وتربوياً يبعد المجتمع المؤمن أفراداً وجماعات عن كل ما يفكك وحدته ويسوس بناءه الذي كانت قواعده الإيمان والشعور بالوحدة وإتباع سبيل الحق المبين ، فحري بهذا المجتمع أن يبتعد عن كل مظهر من مظاهر الجاهلية والنفاق ويولي شطره نحو الإيمان والسلام .

ولم ينته المنهج الإسلامي عند هذا الحد في تعليم وتربية المجتمع المسلم فحسب ، بل إنه ينهج به إلى أن يكون مجتمعاً تائباً منيباً إلى الله تعالى ، كلما تعلق به شيء من أوضار الجاهلية والنفاق ، ولم به خوض غيرهم ممن لا يعبأ به الله سبحانه وتعالى . فهو مجتمع متجدد دائماً بالتوبة وينمو بالرجوع إلى الله تعالى ، لهذا ختمت الآيتان بالتوبة ، وفي نفس الوقت التوبة بناء آخر للفرد المسلم ولمجتمعه ورحمة مهداة للعباد وملجأ يوصل إلى العليم الخبير ، ويعيد كل شيء إلى مجراه . وأسلوب الآيتين بديع وعميق في يقظة العقل الثائب والفكر السائح والمنهج الهادف .

(١) سورة التوبة الآية ٦٩ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وعلى كل فإن خاتمة الآيات الكريمات تلزم من ارتكب شيئاً من هذه الأمور الستة التوبة ، فإنه تعالى يهدد من لم يتب بوصمه بلقب الظلم ووزجه في زمرة الظالمين .

فالتوبة مطلوبة ممن ارتكب شيئاً من الأمور الستة أو غيرها بناءً على خاتمة الآيات الكريمة. وأن ما كان حقاً لله تعالى تكفي فيه التوبة الصادقة وما كان حقاً للآدمي يضاف إليها الاستحلال(١).

وقد لخص ابن كثير توبة المغتاب فقال : " قال الجمهور من العلماء طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع وأن يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك "(٢)

وعلى كل فإن التوبة شرط مسبق عند الجميع سواء كان استحل ممن اغتابه أو لم يستحل ، وللتوبة شروط لابد منها وهي واجبة من كل ذنب ؛ فإذا كان الذنب بين العبد وربه ولا تعلق له بحق آدمي ، فلابد من ثلاثة شروط :-

١- المفارقة التامة الشاملة للمعية .

٢- أن يندم التائب من ارتكاب المعصية ويسوءه ما مضى من غواية .

٣- العزم الكامل والجد الصابر من التائب على ألا يعود.

---

(١) إحياء علوم الدين : للغزالي ، ج٣ : ص١٥٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج٤ ، ص٢١٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٤- إذا كانت المعصية تتعلق بحق آدمي يضاف إلى الشروط الثلاثة شرط رابع وهو الاستحلال من المظلوم ورد الحق له وتمكينه من ظالمه(١).

الخاتمة وبها بعض النتائج :-

لا يستطيع أحد مهما أوتي من البيان وفصل الخطاب أن يقارب أو يماثل هذه الصورة المعجزة في سورة الحجرات موضوع البحث ، وفيما يظهر أن الله سبحانه وتعالى صنف المؤمنين إلى صنفين في السورة .

صنف تجاوز درجة الإسلام إلى درجة الإيمان ، وهؤلاء يحرص منهج الدعوة الإسلامية في السورة عليهم أشد الحرص فلا يدع لهم المجال ليسترسلوا في مخالفة الآداب . وكانت منادات هؤلاء دائماً بالوصف المحبب إلى نفوسهم والمحدد درجتهم والمشعر بعضهم المسؤولية المبنية على علم من عرف الإيمان ونواقضه ، ومنه تدرج خطابهم في عتاب لم يفرق بين الحكم بما أنزل الله والتوجيه إليه والعتاب في كلمة لا يلقى لها بال في السخرية أو في الظن أو في الغيبة ، كل ذلك يعني به منهج الدعوة الإسلامية .

أما الصنف الثاني الذي تعرضت له السورة فهم المسلمون الذين لم يصلوا إلى درجة الإيمان فهؤلاء كانت الوقفة معهم في ذات الإيمان ، وإن كانوا جميعاً تجمعهم كلمة الإسلام ، فبينهم من التفاوت كما بين درجات الجنة وهم كلهم في الجنة بإذن الله

هذا وقد توصلت إلى بعض النتائج في هذا البحث المتواضع وهي :-

(١) الأذكار النووية : النووي ، ص٢٩٧ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

١- أن القرآن الكريم يتضمن كل ما فيه إسعاد البشر وبناتهم الحضاري بناء يربطهم بالله سبحانه وتعالى .

٢- هذه السورة من السور التي حوت وتضمنت نظاماً كاملاً ودستوراً شاملاً لمجتمع فاضل وهو المجتمع المؤمن ، ومن خلال دراستها تبين ما يلي :

(أ) البشرية وحدة من أصل واحد أساسها الأول النبوة .

(ب) جميع المخلوقات بما في ذلك البشر خالقها واحد تقر به في أصل الفطرة ، وإن تباينت أساليب البشر في التعبير عن هذا الخالق العظيم سبحانه . ومن يساوره الشك في هذا قلة كل ما يقال فيه أنه متردد .

(ج) الإيمان أبرز أصل من أصول بناء المجتمع المؤمن .

(د) والإيمان له شواهد وضوابط هي العمل بالكتاب والسنة واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم .

(هـ) المجتمع الذي يقوم على هذه الأسس السليمة يدوم على قوته ويستمر على إيمانه يزيد فيه ولا ينقص . وذلك هو عدم الفرقة وقبول ما يسببها من السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة ، وعلاج هذا كله إن وجد في المجتمع سد الذرائع .

ونقول في ختام بحثنا هذا أن الأمة الإسلامية اليوم إذا أرادت أن يكون لها مجتمع مترابط قوي ينمو على مراد الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم . عليها أن تعود إلى كتاب الله العزيز والسنة المطهرة فإن فيهما الكفاية المنشودة .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المصادر والمراجع :

-القرآن الكريم .

- الأذكار النووية / النووي ، محي الدين يحيى بن شرف .

- الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، بيروت : مؤسسة مناهل العرفان .

الكشاف / الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، القاهرة : دار الفكر ، ط١ ، ١٩٧٧م .

- المسند / الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٣م .

- المفردات / الراغب الأصفهاني .

- النهاية في الفتن والملاحم / ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، القاهرة : دار الحديث .

- الوجوه والنظائر في القرآن / الدامغاني .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن / الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، بيروت : دار الفكر ، ط١ ، ١٩٨٤م .

- دار تفسير الخازن / الخازن ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ، بيروت المعرفة .

- روح المعاني / الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود ، بيروت إحياء التراث العربي ، ط٤ ،١٩٨٥م .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

- صحيح مسلم بشرح النووي / أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري ، بيروت : مؤسسة مناهل العرفان .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ، دمشق : مكتبة الغزالي .

لسان العرب / ابن منظور ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ط١ ،١٩٩٣م.

مدارج السالكين / ابن القيم الجوزية ، أبو عبد الله محمد بن ابي بكر ، القاهرة : دار الحديث .

- منهاج القاصدين / ابن قدامه .

٢١-أسباب النزول / النيسابوري ، أبو الحسن علي بن أحمد ، بيروت : عالم الكتب.

أحكام القرآن / ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، القاهرة : دار الفكر العربي .

إحياء علوم الدين / الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، القاهرة : دار الحديث.

-الإصابة في معرفة الصحابة / ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ، بيروت : دار الفكر .

-التفسير الكبير / الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط٢، ١٩٩٠م .

تفسير القاسمي / القاسمي ، محمد جمال الدين ، بيروت : دار الفكر ، ط٢ ، ١٩٧٨م .

-تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، بيروت : دار ابن كثير ، ط١ ، ١٩٩٤م .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

زاد المسير في علم التفسير / ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٦٤م .

-صلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم / الدامغاني .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com